الفصل الثاني

الإمامــة

بين الإمامة والحكومة

سبقت الإشارة إلى رأي بعض المعاصرين الذين يتعاملون مع مسألة الإمامة وكأنها تساوي مسألة الحكومة التي هي، بحسب هؤلاء، الوجه الدنيوي للقضية، وهذا غير صحيح. فالمهم في مسألة الإمامة هو وجهها الديني، وأساساً فإن العلاقة المنطقية بين مسألة الإمامة ومسألة الحكومة هي في اعتبارٍ مّا (كعلاقة العام بالخاص في بعض وجهه). فالإمامة مسألة، والحكومة التي هي من شؤون الإمامة مسألة أُخرى. فنحن في عصر الغَيْبة نتحدث عن الحكومة ولا نتحدث عن الإمامة، وينبغي أن لا نعتبر الإمامة مساوية للحكومة، فالإمامة حسب تعبير علماء الدين هي الزعامة الدينية والدنيوية، ولأنها زعامة دينية فهي بالطبع زعامة دنيوية أيضاً، تماماً كالنبيّ -صلى الله عليه وسلم- الذي كان زعيماً دنيويّاً تبعاً لزعامته الدينية. فإذا افترضنا زمناً لا وجود للإمام فيه ـ أو كان الإمام غائباً ولم تكن هناك زعامة دينية بمعنى الإمامةـ فحينئذٍ تُطرح مسألة الزعامة الدنيوية وواجبنا تجاهها[1].

هل يكفينا إسم الشيعيّ؟

على الذين تأسرهم الوساوس الشيطانية، ويمنون أنفسهم بـ «أن أسماءنا هي في زمرة محبي الإمام عليّ عليه السلام، ومهما يكن من أمر فإننا نُحسب من رعيّته، أو أننا نوصي أن يدفعوا بعد موتنا شيئاً من الأموال التي جمعناها من غير حق، أو الأموال التي كان يجب علينا إنفاقها في حياتنا في أعمال

(1) مطهري، امامت، [الإمامة] ص96.

البرّ والخير ولم نفعل، أن يدفعوا قسماً من هذه الأموال لِسَدَنة المراقد المقدسة لكي يدفنونا بالقرب من قبور أولياء الله حيث لا يجرؤ الملائكة على تعذيبنا، على هؤلاء أن يعرفوا أنهم مخطؤون جدّاً وأن حُجُبَ الغفلة أعمت أبصارهم، وسوف ينتبهون من غفلتهم في يوم وقد دخلوا في العذاب الإلهيّ الشديد، وهناك تأخذهم الحسرة على ما فرّطوا، ويتمنون الموت ألف مرة! وعلى هؤلاء أن ينتبهوا اليوم من غفلتهم ويتوبوا قبل فوات الأوان ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

نقاط السلب والايجاب في تاريخ الأمّة

تسعى كل أمّة لاستخراج النقاط الإيجابية من تاريخها وتسليط الضوء عليها، وإخفاء سلبياتها قدر الإمكان. إن الحوادث المشرقة في تاريخ أيّ دين أو شريعة تُعدُّ علامة الأصالة والحقيقة وتستقطب النفوس، بينما تكون الحوادث التاريخية السلبية عاملاً للتشكيك في أصالة ذلك المبدأ وعلامة ضعف الطاقة الخلّاقة فيه. إن الحديث عن مسألة الخلافة والإمامة والتجربة السلبية في القرن الإسلامي الأول وتكرار الوقائع السلبية في أكثر من مرحلة، لا سيما في العصر الحاضر حيث يواجه الجيل الجديد أزمة روحية في مجال الدين، يؤدي إلى ضعف الإيمان والابتعاد عن الإسلام. ربما كانت هذه الأحاديث في العصور السابقة تترك تأثيراً إيجابيّاً حيث كانت تقرب الاهتمامات بين فريق إسلامي وفريق آخر، أما في العصر الحاضر فإن تكرار هذه الأمور وتسليط الضوء عليها يزلزل الأفكار بالنسبة إلى الأصول والجذور. فلماذا يعمل الآخرون على إخفاء سلبيات تاريخهم، بينما نحن المسلمين نعمل ـ على العكس من ذلك ـ على اجترار السلبيات وتضخيمها أحياناً أكثر من الواقع؟

نحن لا نستطيع بالطبع أن نتفق مع هذه النظرة تماماً، لأننا نعتقد بأنه لو كان نقد التاريخ ودراسته يتم فقط من خلال تكرار حوادث السلبية وتصويرها فإن النتيجة تكون كما أسلفنا، ولكن من جهة أخرى فإن الاكتفاء بتصوير

(2) مطهري، عدل الهى [العدل الالهي]، ص375-376.

التطورات الايجابية والمشرّفة وإخفاء الحوادث والتطورات السلبية لا يكون نقداً للتاريخ، بل هو تحريف له.

وقبل كل ذلك هل هناك تاريخ إنساني واحد يخلو من الحوادث السلبية في تجربته الحضارية؟ إن تاريخ كل أمّة، بل تاريخ البشرية جمعاء هو مزيج من السلبيات والايجابيات، ولا يمكن أن يكون غير ذلك، فالله تعالى لم يخلق أيّة أمّة أو جماعة على غرار الملائكة منزّهة من الذنب والخطأ. إن الفارق في تاريخ الأمم والشعوب والأديان والشرائع في قيم القبح والجمال ليس في أن بعضها حُسنٌ مطلق، والبعض الآخر قبح مطلق، بل هو في النسبة بين نقاط القبح والحُسن.

والقرآن الكريم قد أوضح بشكل دقيق حقيقة أن الإنسان يتكون من مجموعة من قيم الخير والشر. الضعف والقوة. فعندما خلق الله آدم، استغربت الملائكة لأنها كانت ترى في هذا المخلوق نقاط السلب والضعف، فردّ الله عليهم بأنه يعلم ما في هذا الإنسان من نقاط الايجاب أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30].

وإذا أخذنا النسبة بعين الإعتبار فإن تاريخ الإسلام لا نظير له من حيث كثرة نقاط الجمال والتجليات الإنسانية والإيمانية. فهذا التاريخ مفعم بالملاحم، ومليء بالجمال والإشعاع، وطافح بالتجليات الإنسانية. فوجود بعض البقع السوداء لا يقلل من جماله وعظمته وجلاله.

ولا تستطيع أيّة أمّة أن تزعم بأن إيجابيات تاريخها أكثر من الإسلام، أو أن سلبيات التجربة التاريخية الإسلامية تفوق سلبيات تاريخها.

واجه رجل يهوديّ الإمام عليّ عليه السلام وأراد أن يلومه على الصراعات التي شهدتها الأمة بعد رحيل الرسول الكريم صلى الله عليه وآله فقال للإمام:

ما دفنتم نبيّكم حتى اختلفتم فيه!

فأجابه عليه السلام: «إنما اختلفنا عنه لا فيه، ولكنّكم ما جفَّت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيّكم: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾[3].

أي إن اختلافنا كان إلى جانب قبولنا التوحيد والنبوّة. إننا اختلفنا حول: هل إن الإسلام والقرآن يحكمان بأن خليفة الرسول ينبغي أن يكون شخصاً معَيّناً ومنصوصاً عليه مسبقاً، أم أن الناس هم الذين ينتخبون هذا الخليفة؟ أما أنتم اليهود فقد أثرتم في حياة نبيّكم موضوعاً كان يتناقض مع جذور دينكم وتعاليم هذا النبي.

ثم لو افترضنا جواز غض الطرف عن سلبيات التجربة التاريخية في بعض المجالات العامة، فهل يجوز ذلك أيضاً بالنسبة إلى أمور ترتبط بأساس الإسلام أيّ مسألة القيادة التي يتعلق بها مصير المجتمع الإسلامي؟ إن غضّ الطرف عن مسألة كهذه هو بمثابة غضِّ البصر عن سعادة المسلمين.

أضف إلى ذلك لو أن التاريخ سحق بعض الحقوق، لا سيما لو كان أصحاب تلك الحقوق من أفضل أبناء الأمة، فإن غض الطرف حينئذ عن حقائق التاريخ لا يمكن أن نعتبره إلا تضامن اللسان والقلم مع سيف البغي[4].

أهل البيت، عامل إيجابي أم سلبي؟

إن فكرتنا حول مسألة الولاية والإمامة جاءت مقلوبة وبشكل غريب. أليس غريباً أن يكون لنا قدوات مثل أهل بيت الرسول -صلى الله عليه وسلم- مثل: علي بن أبي طالب، والحسن بن علي، والحسين بن علي، والإمام زين العابدين وسائر الأئمة، ثم بدل أن يؤدي هؤلاء القادة دور المحرك والدافع لنا نحو العمل، نرى أنهم قد تحولوا في حياتنا إلى مجرد وسيلة للتخدير والكسل والتهرب من العمل؟ إننا اتخذنا التشيّع وحبّ أهل بيت الرسول وسيلةً للتهرب من تحمل المسؤولية الإسلامية! فانظروا كم هو ممسوخ هذا الفكر. وكيف

(3) علي بن أبي طالب، **نهج البلاغة**، تحقيق: صبحي الصالح، الحكمة 317.
(4) مطهري، امامت [الإمامة]، ص13-16.

دخلت هذه الحقيقة السامية بشكل مقلوب إلى أفكارنا، فأصبحت عاملاً للتكاسل، وسبباً لترك العمل، بانتظار أن يقوم الإمام بكل الأعمال، وفي القيامة يتحمل الإمام كل المسؤولية![5].

ماذا يعني حديث الثقلين؟

لقد أساء بعض خطباء المنبر الحسيني إلى هذا الحديث[6] حيث اتخذوه مجرد وسيلة لقراءة مصائب العترة، ولذلك فإن المستمع يتصور أن مقصود النبيّ ﷺ من هذا الحديث هو أنني تركت فيكم شيئين أحدهما القرآن لكي تحترموه، والآخر العترة لكي توقّروهم ولا تهينوهم، بينما المقصود أنه ترك لنا القرآن لكي نعود إليه في العمل، وترك عترته وأهل بيته لكي نقتدي بهم، ذلك لأن الحديث يقول في نهايته: «لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما أبداً». إذن، فإن المهم هو الرجوع إليهما، وإنما جعل النبيّ ﷺ أهل بيته عِدْلاً للقرآن للرجوع إليهم والإقتداء بهم، وقد قال الرسول ﷺ أن القرآن هو الثقل الأكبر، والعترة هي الثقل الأصغر[7].

الفرق بين الشيعيّ وغيره

إن أحد عوامل انحطاط المسلمين وفساد مجتمعاتهم هو الغرور غير المبرر الذي أصاب كثيراً من المسلمين في المراحل المتأخرة من التاريخ، ولا سيما اتباع المذهب الشيعي.

فإذا سألنا هؤلاء: أتكون الأعمال الصالحة من غير الشيعة مقبولة عند الله؟ كان جوابهم: كلّا!

وإذا سألناهم: وما حكم الذنوب والسيئات التي يرتكبها الشيعة؟

---

(5) مطهري، ده گفتار [المقالات العشرة]، ص122-123.

(6) إشارة إلى الحديث النبوي المتواتر عند الفريقين القائل: «إني تارك فيكم الثَقَلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، لن تضلوا بعدي ما إن تمسكتم بهما أبداً».

(7) إمامت [الإمامة]، ص83.

قالوا: كلها مغفورة!!

ويُستنتج من هاتين الجملتين أن الشيء الذي لا قيمة له هو العمل.

فليس له قيمة إيجابية أو سلبية. ويكفي لضمان سعادة الإنسان ونيله الحظوة عند الله أن يُطلق على نفسه اسم "شيعيّ".

ويستدل أصحاب هذا الاتجاه بما يأتي:

1 ـ لو اعتبرنا أن ذنوب الشيعة وغيرهم تتعرض لنفس الحساب والعقاب فما الفرق إذن بين الشيعي وغير الشيعي؟

2 ـ هناك رواية مشهورة تقول: «حبّ علي بن أبي طالب حسنة لا تضر معها سيئة»[8].

وللجواب على الدليل الأول نقول: إن الفرق بين الشيعي وغيره يظهر عندما يلتزم الشيعي بالبرنامج العملي الذي وُضع له من قبل زعمائه. ويلتزم غير الشيعي أيضاً ببرنامجه الديني، حينئذٍ يصبح الشيعي متقدماً على غيره في الدنيا وفي الآخرة معاً.

فالفرق بينهما يُبحث عنه في الجانب الإيجابي وليس في الجانب السلبي.

ولا ينبغي أن نقول: لا بدّ أن يوجد اختلاف بين الشيعي وغيره في الوقت الذي يضع كل منهما منهاجه الديني تحت أقدامه، وإذا لم يكن ثمة اختلاف بينهما فما الفرق إذن بين الشيعي وغيره؟

وهذه الحالة شبيهة بما إذا راجع مريضان طبيبين مختلفين وقد ذهب أحدهما إلى طبيب حاذق والآخر إلى طبيب غير حاذق، ولكنهما عندما استلما الدواء لم ينفذ أيّ منهما أوامر الطبيب وتركاه جانباً، فمن المتيقن حينئذ بقاء كل منهما على حاله إذا لم يزدد سوءًا، وعندئذ يحتج المريض الأول قائلاً: ما هو الفرق بيني وبين من راجع الطبيب غير الحاذق؟

---

(8) المجلسي، **بحار الأنوار**، الطبعة القديمة، المجلد التاسع، ص401.

لماذا أبقى أنا مريضاً كما بقي هو على مرضه، مع أني راجعت طبيباً حاذقاً وراجع هو طبيباً غير حاذق؟

إذن، ليس من الصواب أن نجعل الفرق بين علي عليه السلام وغيره في أننا لو لم نعمل بمنهجه فسوف لن نرى سوءًا، أما الآخرون فإنهم سوف يلقون عذاباً ونكراً، عملوا بنصائح قدوتهم أم لم يعملوا!!

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أن رجلاً من أصحابه ذكر له عن بعض من مَرَقَ من شيعته واستحلّ المحارم، وأنهم يقولون إنما الدين المعرفة، فإذا عرفت الإمام فافعل ما شئت. فقال الإمام الصادق:

«إنّا لله وإنا إليه راجعون! تأوّل الكفرة ما لا يعلمون!، وإنما قيل: اعرف واعمل ما شئت من الطاعة فإنه مقبول منك، لأنه لا يقبل الله عملاً من عامل بغير معرفة...»[9].

ويقول محمد بن مارد: قلت للإمام الصادق عليه السلام: «حديث روي لنا أنك قلت: إذا عرفت فاعمل ما شئت؟ فقال: قد قلت ذلك، قال: قلت وإن زنوا أو سرقوا أو شربوا الخمر! فقال لي: إنا لله وإنا إليه راجعون!، والله ما أنصفونا أن نكون أخذنا بالعمل وَوُضِعَ عنهم، إنما قلتُ: إذا عرفت فاعمل ما شئت من قليل الخير وكثيره فإنه يُقبل منك»[10].

وأما رواية «حبُّ علي بن أبي طالب حسنة لا تضر معها سيئة» فلا بدّ أن نبحث عن معناها الحقيقي، وقد فسرها أحد العلماء الكبار ويقال إنه الوحيد البهبهاني بشكل خاص يقول فيه: إن معنى هذا الحديث أنك إذا كنت محبّاً حقيقيّاً للإمام علي عليه السلام فإن الذنوب لن تصيبك بأذى، أيّ إذا كنت صادقاً في حبّك لعليّ أنموذج الإنسانية الكامل وكانت طاعتك وعبوديتك وأخلاقك سائرة على منهجه بإخلاص دون رياء ولا نفاق فإن ذلك سيحول بينك وبين ارتكاب الموبقات والذنوب، مثل اللقاح الذي يكسب الإنسان مناعة تحميه من الأمراض الملقّح ضدّها.

---

(9) النوري، **مستدرك الوسائل**، ج1، ص24.

(10) الكليني، **أصول الكافي**، ج2، ص464.

وحبّ القدوة من أمثال علي ذلك الذي يجسِّد العمل والتقوى والعفاف يجعل الإنسان محبّاً لسيرته ولطريقة عمله ويقتلع من عقله حتى مجرد التفكير في الذنوب من عقله، شرط أن يكون صادقاً في حبّه.

والإنسان الذي يعرف عليّاً ويعرف تقواه ويعرف كيف كان يتعبد ويتأوه آخر الليل، ثم يعشقه فمن المستحيل أن يقوم بأعمال تخالف أوامره، ومن المتيقن أنه سوف يعمل بما أمر وعمل به ذلك الإمام من تقوى وصلاح واستقامة.

وكل حبيب لا بد أن يحترم رغبات محبوبه ويجلّ أوامره، والطاعة للمحبوب لازمة من لوازم الحب الصادق ولا تختص بعليّ عليه السلام، فحب الرسول العظيم صلى الله عليه وآله أيضاً كذلك.

إذن، معنى الحديث القائل «حبُّ علي بن أبي طالب حسنة لا تضر معها سيّئة» إن حبّ عليّ يمنع الذنوب من الإضرار بالمحب على قاعدة أن حبّه يسدّ الطريق أمام الذنوب، وليس معناه ـ كما تخيل بعض الجاهلين ـ إن حبّ عليٍّ هو شيء إذا ظفرت به لن تضر معه الذنوب.

وبعض الدراويش يدّعون أنهم يحبون الله ولكنهم من ناحية أُخرى يتصرفون ويعملون بشكل أقبح من كل الفاسقين والمنحرفين، فهؤلاء يدّعون ولكنهم في دعواهم كاذبون.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

تعصي الإله وأنت تُظهر حبّه هذا لَعَمْري في الفعال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع[11]

فأصدقاء أمير المؤمنين وأصحابه الحقيقيون يبتعدون دائماً عن مواقع الذنوب ويفرون منها، وولايته صائنة لهم عن الذنوب لا مشوّقة إيّاهم فيها.

(11) المجلسي، **بحار الأنوار**، الطبعة القديمة، ج 12.

يقول الإمام الباقر عليه السلام:[12] «ما تُنال ولايتنا إلا بالعمل والورع»[13]

الانتماء الظاهري إلى المذهب ليس عامل نجاة

. . . ولسوء الحظ فقد أخذت أفكار المرجئة في العصور الأخيرة تتسلل في إهاب آخر إلى صفوف العامة من الشيعة، حيث اعتبرت جماعة من هؤلاء مجرد الانتماء الظاهري إلى منهج الإمام علي عليه السلام كافياً للنجاة، وقد شكل هذا التفكير العامل الأساسي لتخلف الشيعة في العصر الأخير. أما الدراويش والمتصوِّفة فقد أخذوا في الأزمنة الأخيرة يحتقرون العمل ويستهينون به بذرائع وحجج مختلفة، حيث تشبثوا بمسألة صفاء القلب، بينما صفاء القلب الحقيقي هو الدافع للعمل والمؤيد له وليس المتعارض معه[14].

علاقة المحبة والعمل

سأل رجلٌ الإمام عليٌّ عليه السلام أن يعظه، فقال له الإمام:

«لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل، ويُرجِّي التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين. . .»[15].

إن هذه الموعظة تعكس حالتنا، فنحن نقول يكفينا حب عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ولكن حبنا إيّاه ليس حُبّاً حقيقيّاً، ذلك لأن الحب الحقيقي مدعاة العمل. نقول: يكفينا هذا الانتماء الظاهري [لعليّ] ونظن أن عليّاً عليه السلام مفتقر إلى هذا الانتماء ولو كان مزيفاً. . . ونحن نتصور أن بكاءً كاذباً على الإمام الحسين عليه السلام يغني عن العمل، ولكن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يقول إن كل هذا كذب، فلو دفعك حبّك لعليّ بن أبي طالب إلى العمل، فاعلم بأن حبك صادق، ولو أصبح بكاؤك على الحسين بن علي عليه السلام باعثاً على العمل، فاعلم

(12) الكليني، **أصول الكافي**، ج 2، ص60.
(13) مطهري، عدل إلهى [العدل الالهي]، ص365-368.
(14) مطهري، عدل إلهى [العدل الالهي]، ص313.
(15) الإمام علي، **نهج البلاغة**، تحقيق: صبحي الصالح، الحكمة 150.

إن بكاءك على الحسين صادق، وإلا فهو خداع من الشيطان[16].

الإمام الحسن والإعلام العباسي

. . . ويجدر بي هنا أن أشير بايجاز إلى ما أشاعه خلفاء بني العباس واشتهر بين عامة الناس، وهو ما نجده في الكثير من الكتب: أن الإمام الحسن بن علي عليه السلام كان كثير الزواج والطلاق، ولأن هذه الشائعة اختُلقت بعد حوالى قرن واحد من حياة الإمام الحسن فقد انتشرت في كل مكان وفي أوساط محبيه وشيعته دون التثبت من أصل الموضوع وصحته، ودون الالتفات إلى أن هذا العمل [أيّ الطلاق] مبغوض في الإسلام وهو يليق بالشخص الغافل اللّاهي، وليس بالرجل الذي حجّ بيت الله ماشياً مرات عدة، وقسَّم ثروته أكثر من عشرين مرّة بينه وبين الفقراء فكان يأخذ النصف ويدع لهم النصف الآخر، ناهيك عن قداسة الإمامة وطهرها.

ومن المعلوم أن بني الحسن أدوّا دوراً كبيراً في التعاون مع بني العباس في عملية نقل الخلافة من الأمويين إلى العباسيين. أما بنو الحسين وكان على رأسهم الإمام الصادق عليه السلام في تلك الفترة فقد رفضوا التعاون مع العباسيين، وبالرغم من أن العباسيين كانوا يتظاهرون في البدء بالخضوع والولاء لبني الحسن وتقديمهم على من سواهم، إلا أنهم خانوهم في نهاية المطاف وقتلوا أو سجنوا الكثير منهم.

ولكي يتمكن بنو العباس من تنفيذ سياستهم المعادية فقد شنّوا حملة إعلامية تحريضية ضد بني الحسن، كان من مظاهرها أنهم أشاعوا بأن أبا طالب عمّ النبيّ صلى الله عليه وآله والذي يُعتبر الجدّ الأكبر لبني الحسن لم يدخل إلى الإسلام بل مات على الكفر، أما العباس، وهو العمّ الآخر للنبيّ صلى الله عليه وآله والجد الاكبر للعباسيين فقد أسلم ومات مسلماً، إذن فنحن العباسيين أجدر من بني الحسن بالخلافة لأننا أبناء العمّ المسلم للرسول صلى الله عليه وآله بينما هم (بني الحسن)

(16) مطهري. گفتارهاي معنوي [المقالات الروحية]، ص124.

أبناء العم الكافر. وقد أنفقوا الأموال الكثيرة في هذا السبيل واختلقوا الأقاصيص. وقد صدرت في الفترة الأخيرة بعض الدراسات الموضوعية في أوساط الباحثين من أهل السنة تسلط الضوء على هذه المسألة في الأفق التاريخي.

أما المسألة الثانية التي أشاعها العباسيون ضمن إعلامهم المضاد لبني الحسن فهو الزعم بأن الخلافة وصلت إلى الإمام الحسن عليه السلام بعد أبيه الإمام علي عليه السلام، ولكن لأنه كان رجلاً لاهياً ومهتما بالنساء وكان مزواجاً مطلاقاً، فهو لم يستطع القيام بأعباء الخلافة فأخذ الأموال من خصمه اللدود معاوية واهتم بالزواج والطلاق وترك الخلافة لمعاوية.

بيد أنه ولحسن الحظ فإن عدداً من الباحثين الكبار عملوا على تحقيق هذه القصة وتوصلوا إلى كشف زيفها. والظاهر أنها تعود إلى القاضي المنصوب من قبل أبي منصور الدوانيقي الذي كلّفه ببث هذه الشائعة المختلقة. يقول أحد المؤرخين: لو كان الإمام الحسن عليه السلام قد تزوج هذا العدد الكبير من النساء، فأين هم أولاده؟ والجميع يعلم أن ذريته قليلون جدّاً؟ ولم يكن الإمام الحسن عقيماً بالطبع كما لم يكن منع الحمل أو إسقاط الجنين متداولاً في ذلك العصر.

إنني استغرب من بعض رواة الأحاديث الشيعة السذّج الذين يروون من جهة عدداً كبيراً من الأحاديث عن الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته حول أن الله يبغض أو يلعن الرجل المطلاق، ثم يكتبون مباشرة أن الإمام الحسن كان رجلاً مطلاقاً! لم يفكّر هؤلاء بأن عليهم أن يسلكوا أحد الطرق الثلاثة: إما القول بأن الطلاق لا إشكال فيه وأن الله لا يبغض الرجل المطلاق، وإما القول بأن الإمام الحسن عليه السلام لم يكن مطلاقاً، وإما القول بأنه وهو سبط الرسول لم يكن ـ والعياذ بالله ـ ملتزماً بالتعاليم الإسلامية. ولكن هؤلاء يرون ـ من جهة ـ صحة الروايات التي تؤكد قبح الطلاق وسلامتها ويُسلّمون من جهة أخرى بقداسة الإمام الحسن عليه السلام ويخضعون له، ويروون من جهة ثالثة أن الحسن كان مطلاقاً دون نقد هذه الروايات.

وقد وصل الأمر ببعضهم أنه يروي أن الحسن بن علي عليه السلام طلّق خمسين إمرأة، فقام عليّ عليه السلام بالكوفة فقال: يا معشر أهل الكوفة لا تُنكحوا الحسن فإنه رجل مطلاق. فقام إليه رجل، فقال: بلى والله لنُنكحنَّه، فإنه ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وابن فاطمة، فإن أعجبه أمسك وإن كره طلّق!»[17].

وربما يرى البعض أن رضى النساء أو أوليائهن بالطلاق يكفي في إزالة قبح الطلاق وكراهته ومبغوضيته، ويظنون بأن الطلاق إنما يكون مبغوضاً إذا لم يكن الطرف الآخر راضياً، أما المرأة التي ترغب في اكتساب شرف الزواج والحياة مع من تفخر به لفترة زمنية ثم تُطلَّق منه، فإنه لا مانع من طلاقها.

ولكن الأمر ليس كذلك، فرضى أولياء النساء، أو رضى النساء أنفسهن بالطلاق لا يقلل من مبغوضية هذا الفعل شيئاً، ذلك لأن ما يريده الإسلام هو استمرار الزواج واستقرار الأسرة، ولا يؤثر في هذا شيئاً قرار الزوجين بالطلاق.

فالإسلام لم يبغض الطلاق من أجل المرأة فقط وفي سبيل كسب رضاها حتى تزول المبغوضية برضى المرأة أو رضى أوليائها.

إن السبب في طرح موضوع الإمام الحسن عليه السلام، بالإضافة إلى ضرورة الدفاع عن شخصية تاريخية ودفع التهمة عنه، هو إمكانية أن يبادر بعض الغافلين إلى ممارسة هذا الأسلوب في حياتهم ثم التشبث بما روي حول الإمام الحسن عليه السلام كدليلٍ وتبرير لعملهم[18].

تحريف تاريخ كربلاء

إنّ الشيء الذي يحز في القلب هو كون واقعة كربلاء من أغنى الوقائع التاريخية المُدعمة بالوثائق والأسانيد المعتبرة. في السابق كنتُ أتصور أن سبب كل هذه الأكاذيب التي أُلصقت بهذه الحادثة يكمن في عدم معرفة

(17) رويت الرواية في الكافي والوسائل، أبواب الطلاق.
(18) مطهري، نظام حقوق زن در إسلام [نظام حقوق المرأة في الإسلام]، ص274-277.

الوقائع الصحيحة للواقعة، ولكنني بعد المطالعة والتدقيق لاحظت أنه ربما كانت واقعة كربلاء واحدة من أندر الوقائع التاريخية المدعمة بكل تلك الأسانيد التاريخية الباقية منذ ذلك التاريخ البعيد أيّ منذ أربعة عشر قرناً خلت. فالمؤرخون المسلمون المعتبَرون دوّنوا ونقلوا لنا وقائع عاشوراء بالأدلة والوثائق الدامغة منذ القرنين الأول والثاني. والروايات الموجودة في هذا الشأن إما متطابقة أو قريبة جدّاً من التطابق مع بعضها بعضاً ويبدو أن أسباباً معَيّنة كانت وراء حفظ كل تلك التفاصيل من عوامل التزوير والاختلاق، وربما كانت الخطب الكثيرة أحد الأسباب التي جعلت وقائع القضية محفوظة في التاريخ من جهة، وأهدافها معروفة للجميع من جهة أخرى. فالخطبة في ذلك الزمان كانت بمثابة البيان الرسمي أو الإعلان الحكومي للدولة في الوقت الحاضر، تماماً كما هي حال البيانات الرسمية التي تصدر عن الدول بشأن الحروب ووقائعها والتي تعتبر أفضل وثيقة تاريخية، كذلك كانت حال الخطب آنذاك. ولذلك نرى أن الخطب التاريخية الأساسية سواء الخطب التي وردت قبل دخول المعركة أو خلالها وكذلك خطب آل بيت النبوّة في الكوفة أو في الشام أو غيرها من المدن، بعد انتهاء الواقعة، كلها تُبين بوضوح أهداف المعركة وخط سيرها الأساسي. يُضاف إلى ذلك، أن إلقاء تلك الخُطَب من قِبل أهل البيت، كان يهدف فيما يهدف إلى إلقاء الأضواء على أسباب وقوع الحادثة وعرض تفاصيلها للناس وشرح أهدافها لهم. وهذا بحدّ نفسه يُشكل سبباً من أسباب بقاء تفاصيل الواقعة مدوّنة في الوثائق التاريخية.

إن الحوار الطويل الذي دار بين طرفي النزاع في واقعة كربلاء مدوّن في بطون الكتب التاريخية الأمر الذي يُبين لنا ماهية الواقعة وجوهرها. كما أن الرَّجَز الذي أُنشد أثناء الواقعة وقبلها ـ وهو كثير ـ يمكن أن يُبيّن لنا ماهية المعركة وأهدافها لا سيما الرَّجز الذي ورد على لسان أبي عبدالله الحُسين. بالإضافة إلى ذلك كله فقد تم تبادل رسائل كثيرة بشأن حادثة كربلاء سواء قبل وقوع الحادثة أو خلالها أو بعدها. فهناك الرسائل المتبادلة بين الإمام وأهل الكوفة، وبين الإمام وأهل البصرة، والرسالة التي كتبها الإمام إلى معاوية نفسه [مما يُبيّن لنا أن الإمام كان يُعدّ نفسه للانتفاضة بعد حكم معاوية] كذلك

الرسائل المتبادلة بين الأعداء أنفسهم كرسالة يزيد إلى ابن زياد، ورسالة هذا الأخير إلى يزيد وإلى عمر بن سعد، وعمر بن سعد إلى ابن زياد. لقد أصبحت كل تلك الرسائل وثائق دوّنها لنا التاريخ.

لذلك فإن وقائع المعركة التاريخية واضحة المعالم تماماً ومليئة بالفخر والعزة والمجد. ولكننا شوّهنا هذه الصفحة التاريخية المشرقة وارتكبنا خيانة كبرى بحق الإمام الحسين عليه السلام بحيث أنه لو ظهر إلى عالم الوجود المادي اليوم لاتّهمنا بقلب حقيقة الواقعة رأساً على عقب، ولقال: إنني لستُ ذلك الحسين الذي رسمتموه في خيالكم، وإنّ القاسم بن الحسن الذي صورتموه في مخيلتكم ليس هو القاسم ابن أخي. وعليٌ الأكبر الذي رسمتموه في مخيلتكم ليس هو ذاك الابن الأصيل من صلب الحسين، والأعوان الذين تتحدثون عنهم ليسوا بأعواني وأصحابي في يوم عاشوراء. نعم! فنحن قد صورنا القاسم ذلك العريس الذي لا همّ له إلّا البحث عن زوجة له، ولا هم لعمه أيضاً سوى تزويجه! فهل حاولتم مرة مقارنة هذا القاسم الذي اختلقتم شخصيته مع شخصية القاسم التاريخية الحقيقية؟[19]

خلق الأساطير عند المسلمين

يمتلك أبناء البشر على العموم حسّ عبادة الأبطال وتقديسهم، الأمر الذي يدفعهم إلى خلق الأسطورة من أبطالهم القوميين أو الدينيين. والدليل الواضح على ذلك ما يُتداول بين الناس من أساطير متعددة حول ابن سينا والشيخ البهائي!

ولا شك في أنّ ابن سينا كان نابغة من نوابغ عصره وأنه كان يمتلك من القوى الروحية والجسمية الخارقة للعادة، إلّا أن ذلك بحدّ ذاته كان الدافع لدى الناس لخلق الأساطير حوله. فمثلاً يقال: إن ابن سينا رأى مرةً رجلاً

(19) مطهري، حماسه حسينى [الملحمة الحسينية]. انظر الطبعة العربية لكتاب الملحمة الحسينية (في ثلاث أجزاء)، ترجمة ونشر: المركز العالمي للدراسات الإسلامية (إيران-قم) 1992م، ج، ص31-32.
ملاحظة: الأرقام (هنا وفي سائر مواضع الكتاب) إشارة إلى الطبعة الفارسية من الكتاب.

يمشي على بعد فرسخ منه، فقال: انظروا إلى ذلك الرجل فإنه يأكل خبزاً مغمساً بالسمنة، ولمّا سألوه كيف عرفت أنه يأكل خبزاً مغمساً بالسمنة؟! قال: إنني رأيتُ البعوض يحوم حول خبزه مما يعني بأنّ الخبز الذي يحمله مغمّس بالدهن.

وهنا تظهر بوضوح ملامح الأسطورة على تلك الحكاية، لأن الذي يرى البعوض من على بُعد فرسخ يستطيع رؤية السمنة التي تُغطي الخبز دون عناءٍ يُذكر.

أو أنْ يقال بأن ابن سينا لم يستطع مذاكرة دروسه في الليل في الفترة التي كان يتابع فيها دراسته في مدينة أصفهان وذلك بسبب أصوات طرقات النحاسين في مدينة كاشان [وهي تبعد مئات الكيلومترات عن أصفهان] وعندما ذهبوا ليُجرِّبوا الأمر وطلبوا من النحاسين في كاشان عدم ممارسة أعمالهم في إحدى الليالي، قال ابن سينا إنه بالفعل تمكن من مذاكرة دروسه ومن ثم استسلم لنوم هادئ في تلك الليلة. إنها الأسطورة بكل وضوح.

وقد حصل الشيء نفسه، بالنسبة للشيخ البهائي.

فاختلاق الأساطير أمر لا ينحصر في واقعة عاشوراء. فالناس تستطيع قول أيّ شيء تريده عن ابن سينا دون أن تلحق الضرر بأي أحد أو أيّ مكان. لكن الأفراد الذين يمتلكون شخصية طليعية، والذين تُعتبر أقوالهم وأعمالهم ونهضتهم وثورتهم سنداً وحجةً ووثيقةً تاريخية لا يجوز تحريف أحاديثهم ولا شخصيتهم ولا تاريخهم.

فما أكثر الأساطير التي اختلقناها نحن الشيعة عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام! أنْ يكون عليّ عليه السلام رجلاً خارقاً للعادة أمر لا يشك به أحد. كما أنه لا جدال حول شجاعة عليّ عليه السلام فالصديق والعدوّ يعترفان بشجاعته الخارقة للعادة، ولم يشترك عليّ عليه السلام في أيّ معركة إلا انتصر فيها، ولا نازل بطلاً من أبطال المعارك إلا صرعه وهزمه شرّ هزيمة. ولكن هل يكتفي أصحاب الأساطير وصُنّاعها بهذا المقدار ويقتنعون؟! أبداً.

فعلى سبيل المثال قالوا بأن عليّاً عليه السلام نازل في معركة خَيْبر مَرْحب

الخَيْبَرِيّ وهو أحد الأبطال المعروفين بشجاعتهم الخارقة- وكما يذكر المؤرخون بأنه ضربه بالسيف ضربةً قدَّته إلى نصفين [وأنا بدوري لا أدري هل كان النصفان متساويين أم لا!] فقد أوحى الله ﷻ إلى الملك جبريل بالنزول إلى الأرض ووضع جناحيه تحت سيف عليّ حتى يخفف من وقع الضربة ويمنع بالتالي من أن تنشق الكرة الأرضية إلى نصفين فتموت الأبقار والأسماك والحيوانات! وأنه حصل بالفعل أن نزل جبريل إلى الأرض ووضع جناحيه تحت السيف، الأمر الذي منع انشقاق الأرض لكن ضربة عليّ قسمت مَرْحب إلى نصفين متساويين لو وضعا في كفتي ميزان ما رجح الميزان.

والأدهى من ذلك بأنّ جبريل قد جُرح بسبب تلك الضربة مما أدى إلى مرضه أربعين يوماً، الأمر الذي أخّر صعوده إلى السماء كل تلك المدة. ولمّا صعد إلى السماء وسأله ربّه أيّن أمضيت هذه المرة؟ قال: ربي إنك أمرتني بالنزول تحت سيف علي وقد فعلت، ولمّا كنتُ قد جُرحت من جرّاء تلك الضربة فإنني كنتُ أُعالج جراحي كل تلك الفترة!!

والتفنن في سرد الأساطير وتطويرها لم يقف عند حدّ. فهذا يقول بأنّ سيف عليّ قد نزل على مفرق مرحب وشَقَّه إلى نصفين ثم استوى على النصف من مقعد حصانه بالكمال والتمام! ولآخر يقول بأنّه ما أنْ سلّ عليٌّ سيفه حتى كان مَرْحب قد صار نصفين دون أن يدرك مرحب نفسه ما حلّ به وأنه صار يسأل عليّاً وهو في تلك الحالة: وهل هذه هي كل قوّتك يا عليّ؟! وهل هذه هي كل بطولتك يا عليّ؟! فقال له عليّ: حرّك نفسك يا مرحب فما كان من نصفيه المشقوقين إلّا أن وقعا على الأرض!!!

يقول الحاج نوري -هذا العظيم في كتابه (اللؤلؤ والمرجان) بعد أن ينتقد هذه الاختلاقات والأساطير الخيالية- لقد كتبوا عن اشتراك أبي الفضل العباس في معركة صِفِيّن [حيث إن أصل اشتراكه في هذه المعركة ليس معلوماً، وإن صحّ فإن ذلك يكون قد حصل وهو صبي في سن الخامسة عشرة]. وأنّه قد رمى بالرجل الأول إلى الهواء بضربة سيفه، ثم ألحقه بالثاني والثالث... وهكذا حتى الثمانين بسرعة فائقة للغاية بحيث إنه لمّا رمى الرجل الثمانين كان الأول لم يزل في الهواء! وهكذا شرع في شقّهم إلى نصفين

ابتداءً من الأول إلى الثمانين في المرحلة اللاحقة من الضربات السريعة المتلاحقة!!

حقّاً إنّ سبب بعض التحريفات التي حصلت في واقعة كربلاء هو وجود حس الأسطورة لدينا. يقول الأوروبيون إنّ تاريخ الشرق مليء بالمبالغات والأساطير. وهذا صحيح. فعندما يتحدث المُلّا آقا الدربندي مثلاً عن كربلاء كما ورد في كتابه «أسرار الشهادة» ويقول بأن عدد الخيالة في جيش عمر بن سعد كان يبلغ (ستمائة ألف) خيّال، وأن المشاة كانوا يناهزون (المليون) شخصاً، فهذا يعني أن جيش عمر بن سعد قد بلغ (المليون وستمائة ألف) شخص من أهل الكوفة! فكم كان حجم الكوفة آنذاك حتى يكون جيش ابن سعد بهذا الحجم؟! فالكوفة كانت مدينة حديثة التأسيس آنذاك ولم يكن قد مضى على تأسيسها سوى خمسة وثلاثين عاماً عندما أمر بذلك الخليفة عمر بن الخطاب. وقد كان الهدف من إيّجادها عسكريّاً حتى يكون هناك مركز عسكري للمسلمين قرب الحدود مع فارس. ولم يكن معلوماً في ذلك الوقت هل بلغ تعداد سكان أهلها المائة ألف أم لا؟ فهل يُعقل إذن أن يجتمع من أهلها ذلك العدد الخيالي ومن ثم يقتل منهم الحسين عليه السلام لوحده (ثلاثمائة ألف)؟ إنها قصة لا تناسب العقل بتاتاً، وبالتالي فإنها تُفقد الواقعة قيمتها التاريخية.

يُنقل في هذا المجال أن شخصاً كان يبالغ كثيراً بشأن حجم مدينة هرات الأفغانية حيث كان يقول: إن هرات كانت كبيرة جدّاً في يوم من الأيام. ولمّا سألوه: وكم كانت كبيرة؟ قال: جمعت في وقت واحد واحداً وعشرين ألف طبّاخ أعور اسمهم أحمد. فتصوروا كم هو عدد سكان المدينة ومن ثَمّ كم هو عدد الطباخين الذين اسمهم أحمد! وبالتالي كم هو عدد العوران في المدينة حتى يمكننا تعداد واحدٍ وعشرين ألف طباخ أعور اسمه أحمد في هذه المدينة!

إن حس صناعة الأساطير يستطيع فعل الكثير. ولا يجوز لنا أنْ نُسلم أمر مثل هذه القضية التاريخية الهامة لأيدي صُنّاع الأساطير:

«فإن فينا أهل البيت في كل خلفٍ عدولاً ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المُبطلين وتأويل الجاهلين»[20].

بالنسبة إلى قضية مدينة هرات وأمثالها فليقُل المبالغون ما يُريدون قوله. ولكن بالنسبة لواقعة تاريخية مثل واقعة عاشوراء، تلك الحادثة التي نحن مُطالبون بإحيائها سنويّاً باعتبارها مدرسةً تربوية وعقائدية حية، فهل يجوز السماح بتسريب كل ذلك الحس الأسطوري والقصص الخيالية إلى مثل هذه الواقعة البالغة الأهمية؟![21].

هل استشهد الحسين من أجل غفران ذنوب الأمة

من جهة أُخرى إني أتساءل عن المجرم أو المجرمين الجُناة الذين ارتكبوا هذه الجريمة بحق الحسين بن عليّ عليه السلام عندما حرَّفوا هدف نهضة الحسين بقولهم إنّه قد عرَّض نفسه إلى القتل ليحمل على عاتقه ذنوب الأمة وهو القول الشائع بين المسيحيين عن المسيح عليه السلام. فهل أرادوا لأنفسهم من وراء ذلك أن يرتكبوا ما استطاعوا من المحرمات دون خوف أو وَجَل. وهل كان المذنبون قلائل حتى يزيد عددهم بهذا التحريف؟! ولذلك فإن الوجه الذي يرى من معركة عاشوراء بعد هذا الانحراف هو ذلك الوجه المظلم والأسود للمعركة، فقد صرنا لا نسمع إلا الرثاء ولا نسمع إلا المصيبة في هذه الذكرة. وأنا لا أقول بعدم ضرورة رؤية وقراءة ذلك الوجه المظلم لكنني أرى أن هذا الرثاء الحسيني لا بد وأن يأتي ممزوجاً بالحماسة، فعندما يقال بأنّ رثاء الحسين بن علي عليه السلام يجب أن يُخلّد فإنّ ذلك حقيقة نطق بها رسول الله صلى الله عليه وآله وأوصى بها أئمتنا عليهم السلام.

إنّ هذا الرثاء وهذه المصيبة يجب ألا تُنسى، وهذه الذكرى يجب أن تظل خالدة ولا بدّ لنا من إبكاء الناس عليها باستمرار ولكن في رثاء البطل.

إذاً لا بدّ لنا أولاً من تثبيت شخصية الحسين عليه السلام البطلة في أذهاننا، ومن

(20) أصول الكافي، ج1، ص32. وكتاب فضل العلم، بصائر الدرجات، ص10.
(21) مطهري، حماسه حسينى، [الملحمة الحسينية]، ج1، ص41-46.

ثم نجلس لنرثيه في ذكراه، نرثيه بطلاً وإلا فإن رثاء رجل مسكين مستكين مظلوم لا حيلة له ولا يدَ له فيما جرى ويجري في التاريخ، أمر لا يحتاج إلى بكاء ولا معنى لبكاء الأمة عليه.

ابكوا البطل وأقيموا مجالس الرثاء والعزاء له حتى تولّدوا إحساساً بالبطولة والشجاعة في أنفسكم، واجلسوا في رثاء البطل عسى أن تنعكس ظلال روحه على أرواحكم وتزداد غيرتكم تجاه الحق والحقيقة، وعسى أن تنذروا أنفسكم للعدالة وتصبحوا من المناضلين ضد الظلم والظالمين وتصبحوا أحراراً وتُقدِّروا معنى الحرية. اجلسوا في رثاء البطل حتى تعرفوا معنى عزة النفس؟ ومعاني الشرف والإنسانية؟ وحتى تعرفوا معنى الكرامة؟

نحن إذا ما قرأنا الوجه المشرق للتاريخ الحسينيّ وطالعناه فإننا عند ذلك نتمكن من الاستفادة من الوجه الرثائي للواقعة، وإلا فإنّ الوجه الرثائي وحده لا فائدة تذكر منه. فهل تتصورون أنّ الحسين بن عليّ جالِسٌ بانتظار من يأتي ليشفق عليه؟! أو أنّ فاطمة الزهراء -عليها السلام- وهي التي تسكن إلى جوار رحمة ربّها تنتظر من يأتيها من أمثالنا نحن صغار البشر ليواسيها ويُخفف من معاناتها بعزاء الحسين عليه السلام بعد مرور أكثر من ألف وثلاثمائة عام على تلك الفاجعة!![22].

بين شهادة عيسى عليه السلام وشهادة الحسين عليه السلام

قبل سنوات عدة قرأتُ كتاباً حاول مؤلفه عقد مقارنة بين شخصية الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام والنبي عيسى المسيح عليه السلام، وهو يرى أنّ عمل المسيحيين أفضل من عمل المسلمين (الشيعة)، ذلك أن المسيحيين يحتفلون بذكرى شهادة عيسى ويفرحون لحلولها بينما يستقبل المسلمون شهادة الحسين بالرثاء والبكاء، كما أنّه يُرجح عمل المسيحيين كثيراً على عمل المسلمين من حيث إن المسيحيين يرون في شهادة عيسى رمزاً للتوفيق والنجاح وليس للفشل والانكسار، ولذلك تراهم يفرحون ويحتفلون بهذا النجاح.

(22) مطهري، [الملحمة الحسينية]، ج1، ص127-128.

في حين أن المسلمين يرون في الشهادة رمزاً للإنكسار والفشل ولذلك تراهم يبكون على هذا الفشل الذي أصابهم. فسُعداً لأمة ترى الشهادة رمزاً للتوفيق والنجاح! وتعساً لأمة ترى الشهادة ذلاً وانكساراً وأمراً يحتاج إلى الرثاء والبكاء!

والجواب على ذلك من وجوه، أولاً: إنّ عالم المسيحية هذا إنما يحتفل بهذه الشهادة انطلاقاً من العقيدة الخرافية التي تقول بأن عيسى قد قُتل حتى يُكفِّر عن ذنوب الأمة، ولمّا رأت أنها قد خفَّت أثقالها بناءً على ذلك فإنها ترى ضرورة الاحتفال بنجاتها وخلاصها وتحررها من محاسبة الضمير وتأنيب الذات! وهذه خرافة خرقاء.

وثانياً: إن الفرق بين الإسلام والمسيحية المحرَّفة هو أن الإسلام دين اجتماعي بينما المسيحية دين لا يتعدى الشأن الاخلاقي.

من جهة أُخرى فإنه يمكن النظر إلى الحوادث مرةً من الزاوية الفردية وأخرى من الزاوية الاجتماعية. فمن وجهة النظر الإسلامية تُعتبر شهادة الحسين بن عليّ نوعاً من النجاح على الصعيد الفردي. فهل كانت الشهادة لشخص الحسين تعبيراً عن الفشل أم عن الموفقية والنجاح؟ لعل كل مسلم يقول بأنها رمز للنجاح. والحسين نفسه يراها كذلك منذ اليوم الأول عندما استقبلها قائلاً: «خُطّ الموت على وَلَد آدم مَخطّ القلادة على جيّد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف»[23].

ومن وِجْهة نظر أي إنسان وكذلك الشهيد نفسه تُعدُّ الشهادة رمزاً للموفقية ولا يحتاج الأمر إلى شهادة المسيحية في ذلك. فقبل خمسين وثلاثمائة وألف عام (1350) مضت رآها أسلافنا وقادة ديننا كذلك أيضاً. ها هو عليّ بن أبي طالب عليه السلام نفسه يقول وهو يستقبل الموت: «والله ما فجأني من الموت وارِد كرهتُهُ، أو طالع أنكرتُهُ، وما كُنتُ إلّا كقارب وَرَد وطالب وَجَد، وما عند الله

(23) المجلسي، **بحار الأنوار**، ج44، ص366. ابن طاووس، **اللهوف على قتلى الطفوف**، ص25. الخوارزمي، **مقتل الحسين**، ج2، ص5 .**كشف الغمة**، ج 2، ص29.

خير للأبرار...»[24].

هذا من وجهة النظر الشخصية والفردية للحدث، لكن الإسلام له بعده الآخر في ذلك، فالقضايا والأحداث المختلفة لا يراها الإسلام في سياق التحليل الفردي والشخصي فقط، بل يضعها في سياق المطالعة الاجتماعية. إنّ واقعة عاشوراء من الناحية الاجتماعية ومن زاوية العمل الجنائي الذي تم ارتكابه، تُعتبر مظهراً من مظاهر الانحطاط في المجتمع الإسلامي. ولذلك ينبغي التذكير بها دائماً لكل أفراد الأمة حتى لا يتم تكرار مثل هذه الجرائم. إنّها تشبه «الحسرة» و«الآه» التي تطلقها الأمة باستمرار حتى تقول: أحقّاً نحن المسلمين قد ارتكبنا مثل هذا الحادث؟! ألا لعنة الله على من ارتكب مثل هذه الجريمة وأنه غير مسموح لنا بتكرار مثلها بعد الآن! ثم بالإضافة إلى ذلك إننا بحاجة إلى مثل هذه المجالس التي نقيمها، من أجل صقل الأحاسيس الإسلامية والإنسانية لدى شعوبنا. ولكن -بالطبع- بشرط أنْ ندرك ما نقوم به. واليوم نحن بحاجة أكثر من أيّ وقت مضى إلى تصحيح شؤوننا الدينية وإجراء الإصلاحات اللازمة عليها. وطبيعي أن المقصود من الإصلاح هو منهج تفكيرنا وطريقة تعاملنا وتعاطينا مع الشؤون الدينية وليس الدين نفسه، فأخطاؤنا لا يمكن حسابها على الدين...[25].

الحسين وارث آدم

هذا اسم كتاب من تأليف الدكتور علي شريعتي. في إحدى سفراتي إلى مدينة مشهد (خراسان) ـ في العام 1973م ـ قدمته لي (انتشارات طوس) فقرأته، وأنا في طريقي إلى طهران. وأبرز ما استخلصته من هذا الكرّاس الذي عرض فيه كاتبه أفكاره بشكل مُبطّن على طريقته، ما جاء فيه: إنما أردتُ أن أقول كل عُقدي وعقائدي في هذا الكراس، هو التالي:

---

(24) المجلسي، **بحار الانوار**، ج 42 ص254. نهج البلاغة شرح فيض الإسلام. من خطبة له عليه السلام قبل رحيله إلى عالم الآخرة وهي أشبه بالوصية، ص875.

(25) مطهري حماسة حسيني، [الملحمة الحسينية]، ج1، ص 128-130.

1 ـ إنّ هذا الكُرّاس ما هو إلّا شكل من أشكال التفسير المادي الماركسي للتاريخ، بل نوع من التعزية الماركسية التي تُقرأ على الإمام الحسين، وهي تعزية مستحدثة.

[واستناداً إلى هذا الكتاب] فإنّ بداية التاريخ البشري، كانت مع الاشتراكية والمساواة. ثم بدأت اللامساواة، وصراع الحق والباطل، يغزوان البشرية، وظهرت الملكية، والتي قسمت بدورها المجتمع البشري إلى قسمين، تماماً كما هو حال نهرَيْ دجلة والفرات اللذين ينبعان من منبع واحد، ثم يتشعبان إلى رافدين منفصلين.

وانقسام الإنسان إلى قسمين يعني إلى طبقتين: طبقة مستغِلة ومستثمِرة، وطبقة محرومة ومستغَلّة.

والطبقة الحاكمة والمستغِلّة ذات ثلاثة أوجه: سياسي، واقتصادي وديني. أو أصحاب الذهب، والقوة، والتزوير (الخداع)

وإن مهمة الفئة الأولى -أي الحكام- هي: صناعة العبيد.

والفئة الثانية -أي أصحاب المال- هي النهب.

والفئة الثالثة -أي رجال الدين- هي الخداع والتضليل.

وهكذا يكون القصر والمتجر والمعبد عبارة عن ثلاثة فروع لمكتب واحد.

وإنّ السيف والذهب والمسبحة تؤدي نفس الوظيفة.

وقد كانت هذه هي سمة النظام الحاكم عبر التاريخ.

وأي شيء آخر غير ذلك كان عبارة عن حركات، وثورات مُدانة ومقموعة.

نعم لقد قامت ثورات، ونهضات، وحركات مُخلصة، ولكنها يائسة، لأن النظام التحتي كان نظاماً فاسداً.

ولهذا ترى أنّ كل تلك الحركات والثورات التي وقعت على يد إبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، وعليّ، والحسين، قد ولّدت آثاراً معاكسة.

وما كان يُنتظر منه أن يكون إدام خبز البشرية، تحوّل إلى بلاء ومعاناة مضاعفة، وقيد جديد أُضيف إلى القيود السابقة.

نعم فحرية القبيلة، والعشيرة الأولى، لم تدم طويلاً (ص 22). ونداء الإمام الحسين قد أُطفئ بينما ظل رنين ناقوس عِجْلِ السامريّ يُدوّي عالياً على الدوام (ص 24)، وما المصير المحتوم لورثة آدم كافة، سوى الأسر والمعاناة (ص 28).

وما إرث الحرية، والعدالة، والنهوض سوى الثورات المدانة في التاريخ أبداً.

وما إرث العبودية، والظلم، ودين التخدير، سوى النظام الحاكم في التاريخ (ص 39).

والإمام الحسين مظهر لانكسار آدم وهزيمته (ص 47).

والكاتب يُصوِّر، في كراسته هذه، أرض ما بين النهرين بمثابة التعبير الرمزي لكل المعمورة حيث أضحى تاريخها مظهراً لتاريخ الأرض كلها.

كما أن دجلة والفرات يعبّران عن الجناحين المتضادين للمجتمع البشري اللذين انشعبا بعد خروجهما من منبع واحد، وأوحيا باتصالهما وتلاقيهما الوهمي والكاذب قرب بغداد، بتلك الوحدة الكاذبة بين جناحي البشرية في دورة الخلافة الإسلامية[26] لكن سرعان ما تكررت الجناية والمأساة بشكل أكثر فظاعة مرة أُخرى.

إنّ كل جُناة العالم يظهرون ويبرزون في كل واحد من تلك الوجوه الثلاثة للخلافة الإسلامية، وهكذا يبدأ شقاء العالم، وهو الشقاء الذي لم يسبق له مثيل[27].

---

(26) الصفحات: 9، 29، 39.

(27) الصفحات: 15، 27، 28، 35.

إنّ مصير دجلة والفرات النهائي هو أن يصبّا في البحر، ويستقرّا هناك.

أما مصير البشرية، كخاتمة التاريخ البشري فهو في الاشتراكية، وهناك فقط تنجو البشرية من بلاء الملكية والنظام الطبقي، ويتم تهديم البناء التحتي، ويحلّ محلّه واقع تأسيسيّ جديد، قوامه العدل والقسط الواقعيّان.

إنّ جهود الثوريين في التاريخ، ونضالاتهم ضد قوى الفساد المتحكمة، كانت مُخلصة وصميميّة على الدوام لكنها يائسة، وغير مثمرة باستمرار.

ولا يمكن الوصول إلى السعادة الواقعية للمجتمع البشري إلّا بزوال الطبقات، ومحو النظام الطبقي[28]، إلا بالاشتراكية التي تطمئن القلوب!

فالإمام الحسين، يتقدم بتسارع نحو الموت، وحيداً يائساً[29] ـ كما يرى الكاتب ـ وإنه مظهر هزيمة آدم وانكساره، والتزامه غير المثمر[30].

استنتاج

في هذا الكتاب يُلاحظ المرء أنّ كلمة آدم، أو الإنسان، ما هي إلّا رمز للإنسان الاشتراكي، وتوحيد العالم ما هو إلّا تبرير وتفسير، لتوحيد ووحدة المجتمع.

كما أن الشرك العقيدي، ماهو إلا ظل من شرك الحياة وثنويتها.

وبهذه البيانات، يتجلى مرة أُخرى الطابع الماركسي للكتاب، حيث يتم تفسير وجدان الإنسان على أنّه انعكاس ونتاج للوضع الاجتماعي للإنسان، وهو ما يمكن أن يكون تعبيراً عن وجهة نظر (دوركهايم) وليس (كارل ماركس).

شيء واحد لا تقع عليه العين في هذا الكتاب، هو شخصية الإمام الحسين، وآثار نهضته.

---

(28) ص 9.
(29) ص 23.
(30) ص 48.

إنّ أساس فكرة هذا الكتاب مبني على قاعدة أنّ كل الجهود في المجتمع الطبقي، تبقى دون نتيجة، وأنّ ثوار التاريخ -وهم ورثة آدم أيّ الإنسان الاشتراكي- وقيامهم هو من أجل الحق، والحق يعني العدالة والمساواة، وهذا يعني: الاشتراكية.

إنّ الإمام الحسين في هذا الكتاب هو نفسه الإمام الحسين المُدان، والمظلوم، من قبل قُرّاء العزاء الحسيني التقليديين، والذين يرون فيه رجلاً لا دور له في التاريخ، مع فارق أنّ هذا الإمام عند أولئك الوعّاظ، وقُراء العزاء الحسيني، قد بسط مائدته للبكاء عليه، حتى يحصل البكّاؤون على نصيبهم منها في الآخرة.

بينما الإمام الحسين في هذا الكتاب ـ بواسطة التعازي ومجالس البكاء ـ وسيلة بيد الجناح الحاكم، لاستثمار الطبقة المحكومة والمحرومة واستغلالها.

وفي هذا الكتاب فإنّ المَعْبد كان دائماً إلى جانب القصر والمَتْجر، وعالم الدِيّن ظل دائماً إلى جانب الحاكم وصاحب رأس المال.

وبالطبع فإن الذي يقع في الهامش هو المعبد ـ لاحظ هنا المعبد بشكل عام، وليس الكنيسة، أو الدير، أو الصومعة، أو بيت عبادة الأوثان ـ والذي يشمل بدوره المسجد أيضاً. وبالطبع فإن سياق موقع رجل الدين صار واضحاً أيضاً[31].

استشهاد الحسين وغفران الذنوب

. . . أما التحليل الثاني فهو ما تسلل إلى أفكار الكثير من عامة الناس بأن الإمام الحسين عليه السلام إنما قُتل واستُشهد لكي تُغفر ذنوب الأمة. فشهادة الحسين إنما جاءت كفّارة لذنوب الأمة. تماماً كما يعتقد المسيحيون بالنسبة للسيد المسيح بأنه إنما صُلب فداءً لذنوب الناس. وتعني هذه الفكرة أن للذنوب نتائج سلبية لا بد أن تأخذ بتلابيب الإنسان في يوم القيامة، ولكن الإمام

(31) حماسة حسيني [الملحمة الحسينية]، ج 3، ص307-310.

الحسين عليه السلام استُشهد لكي يبطل آثار الذنوب في يوم الحساب، وبذلك منح الناس الحرية من هذه الجهة. وفي الحقيقة ينبغي القول طبقاً لهذه الفكرة إن الإمام الحسين عليه السلام لمّا وجد أن عدد الجناة من أمثال يزيد وابن زياد وشمر وسنان هو عدد قليل، فأراد أن يضاعف عددهم فعمل على فتح مسيرة في الحياة تؤدي فيما بعد إلى زيادة أمثال هؤلاء، أمثال يزيد وابن زياد. إن هذه الفكرة وهذا التحليل خطيران للغاية، فلا يوجد شيء أخطر من هذه الفكرة وهذا التحليل لإبطال مفعول نهضة الإمام الحسين ومحاربة هدفه، وإفراغ التعاليم الواردة لإحياء ذكراه من محتوياتها.

صدقوني إن أحد العوامل (لأن هناك عوامل أخرى قومية وعرقية) التي أدت لان نكون نحن الإيرانيين بهذه الدرجة من اللامبالاة وعدم تحمل المسؤولية هو التحليل المنحرف لنهضة الإمام الحسين عليه السلام. فقد جرى فهم النهضة بطريقة أدت إلى هذه النتائج التي نرى. يقول السيد زيد بن علي بن الحسين عن المرجئة:[32]«هؤلاء أطمعوا الفُسّاق في عفو الله» أيّ أنهم رغّبوا الفُساق في المعصية بسبب طمعهم في عفو الله. كانت هذه عقيدة المرجئة في ذلك الزمن، وكانت عقيدة الشيعة تقف في النقطة المقابلة تماماً لعقيدة المرجئة، أما اليوم فإن بعض الشيعة يؤمنون بفكرة المرجئة تلك. بينما عقيدة الشيعة الصحيحة والأصلية هي ما يصرّح به القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فالإيمان ضروري والعمل الصالح كذلك[33].

نبكي ضياع الحسين أم عظمته؟

إنك لن تجد نموذجاً عمليّاً خالداً شبيهاً بنموذج المدرسة الحسينية. وإذا ما وجدت نموذجاً شبيهاً بالحسين بن عليّ عليه السلام عندها يحق لك أن تتساءَل لماذا نحن نُجدّد العزاء والذكرى له كل عام؟! وإذا ما وجدت فعلاً من يناظرهُ في الذي حصل له في واقعة كربلاء إن كان في درجة الابتلاء والمصيبة التي

(32) المرجئة طائفة تعتقد بأهمية الاعتقاد والإيمان فقط، وأن لا تأثير للعمل في سعادة الإنسان، فإذا استقامت العقيدة فإن الله يغض الطرف عن الأعمال مهما كانت.

(33) ده گفتار، ص212-213.

حصلت له، أو في فكره التوحيدي وفي مظهر إيّمانه ومظهر معرفته لله، أو في إيّمانه الكامل بعالم الآخرة، أو في رضاه وتسليمه، في صبره واستقامته، في رجولته وثباته، وعزة نفسه وكرامته، وفي طمأنينة النفس التي لديه، في فكره المتحرر والطالب للحرية، في شوقه وتوقه لخدمة الناس، إذا ما وجدت فعلاً نظيراً له في هذه الدنيا، كان من حقك إذاً أن تسأل: لماذا نحن نُخلّد الحسين عليه السلام؟ إنه الإنسان الذي لا بديل ولا نظير له. ونحن إذ نحيي اسم الحسين وثورته إنما نقوم بذلك من أجل أن تنعكس علينا بعض الظلال من روحه عليه السلام.

ونحن إذ نسكب دمعنا عليه إنما نسكبه حتى تنسجم روحنا مع روحه وتتعالى قليلاً لتلتحم مع الروح الحسينية. ولو أن ذرة من همته أو غيرته أو حريته أو من إيمانه أو تقواه أو توحيده تُشع علينا فتسيل مجاري الدمع من مآقينا، فإن ذلك الدمع سيكون بلا شك ذا قيمة بالغة للغاية... ولكن هذا الدمع يختلف عن ذلك الدمع الذي ينسكب هباءً لسقوط الحسين، إنه الدمع الذي يُذرف على الحسين لعظمته وشخصيته الرفيعة. نعم الدمع الذي يسيل على أساس الانسجام والتلاحم مع الحسين بن عليّ عليه السلام واتباع نهجه وسيرته. هذا هو الدمع الذي لو نزل بحجم جناح بعوضة فإنه ذا قيمة عالية[34].

الحسين مظلوم أم شهيد؟

... يصور كثير من خطباء المنبر الحسيني موت الإمام الحسين عليه السلام على أنه نوع من الخسارة والهدر والهباء، وذلك بسبب عدم قدرتهم على تحليل الواقعة بشكل سليم، رغم أنهم يطلقون عليه لقب الشهيد، وسيد الشهداء.

فالكثير من الناس يبكون الحسين عليه السلام لمجرد ظلمه وبراءته، وعزلته، ويأسفون على أن دمه ذهب هدراً وهباءً كطفل راح ضحية أهواء شخص

(34) مطهري، حماسه حسينى [الملحمة الحسينية]، ج1، ص80-81.

مغرور! وإذا كان الأمر كذلك فالإمام إذن مظلوم وبريء تماماً كظلوم جميع ضحايا هذه الجرائم وبراءتهم، ولكنه لا يكون عندئذ شهيداً، فما بالك بسيد الشهداء.

إن الإمام الحسين عليه السلام لم يكن مجرد ضحية الأهواء السلطوية للآخرين. ولا شك في أن هذه الفاجعة من جهة انتسابها إلى القتلة تعدّ جريمة، وأهواء سلطوية، ولكنها من جهة نسبتها إلى الإمام فهي الشهادة، أيّ المقاومة الواعية في طريق الهدف المقدس. فقد طلبوا منه البيعة والاستسلام ولكنه رفض ذلك مع الوعي الكامل بكل النتائج، إضافة إلى أنه كان معارضاً بشدة [خلافة يزيد] وكان يُعدُّ السكوت في تلك الظروف ذنباً عظيماً[35].

عندما يُفرَّغ العزاء الحسيني من محتواه

لقد تغيرت مراسم العزاء الحسيني التقليدية في عصرنا الحاضر من الحركة إلى الجمود. إن فلسفة هذه المراسم، التي قيل عنها بحق: «من بكى أو أبكى أو تباكى وجبت له الجنّة» فحتى التباكي هو ذو قيمة عالية، إن فلسفة كل ذلك أساساً هي إثارة العواطف والمشاعر ضد يزيد وابن زياد وأشباههما عبر التاريخ، وإعلان التأييد للحسين والحسينيين عبر الزمن. فعندما يكون الحسين عليه السلام علماً من أعلام الانتماء لمعسكر الحق، وإعلان الحرب ضد معسكر الباطل، ويكون في الحقيقة رمزاً للتضحية والفداء، عندئذ تكون مراسم العزاء الحسيني حركة، وموقفاً، ونضالاً إجتماعيّاً.

ولكن ما نشهده هو أن روح هذه المراسم وفلسفتها تُنسى شيئاً فشيئاً، ويُفرَّغ هذا الوعاء من محتوياته، وتتحول المسألة إلى نوع من «العادة» حيث يجتمع الناس معاً ويؤدون مراسم العزاء لمجرد كسب الثواب -ولا ثواب له حينئذ- دون أن يحمل مضموناً إجتماعيّاً خاصّاً، ودون أن يكون من وجهة النظر الاجتماعية عملاً ذا محتوى، إنهم يؤدون هذه المراسم بعيداً عن المسؤوليات الاجتماعية ودون أيّة علاقة بأمثال الحسين في هذا العصر، ودون

(35) مطهري. قيام وانقلاب مهدى [نهضة وثورة المهدي] به ضميمه شهيد، ص85.

أيّ موقف معارض لأمثال يزيد وابن زياد في الوقت الحاضر. لهذا السبب فإن الحركة تتغير إلى جمود وإلى عادة، ويفرغ الوعاء من محتواه ويصبح خاوياً. ولو خرج يزيد بن معاوية نفسه من القبر لاشترك في هذا النوع من المراسم، بل ولأقام أكبرها إذ فيها لا يبقى أيّ أثر «للتباكي» فحسب، بل حتى لو سكبنا المقادير الهائلة من الدموع فإنها لا تؤثر شيئاً[36].

فلسفة البكاء على الحسين عليه السلام

. . . وينبغي هنا أن أوضح بعض جوانب فلسفة البكاء على الشهيد. فهناك بعض الناس في عصرنا الحاضر، وحتى بعض الشباب المتديّن يعترضون على مسألة البكاء على الإمام الحسين عليه السلام وأنا شخصيّاً واجهت بعض هذه الاعتراضات.

فبعضهم يخطّئ هذا الأمر بصراحة ويزعم بأنه ناجم عن فهم وتحليل خاطئ للشهادة. وإضافة إلى ذلك فإن له تأثيرات اجتماعية سيئة، إذ يؤدي إلى ضعف الشعوب التي تعودت على مثل هذه الممارسات وتخلفها وانحطاطها.

أتذكر أنني في فترة الدراسة في (قُم) قرأت كتاباً للكاتب الشهير محمد مسعود، كان ينتقد فيه مسألة البكاء على الإمام الحسين عليه السلام ويقارن بينه وبين سلوك المسيحيين إزاء شهادة السيد المسيح عليه السلام -حسب زعمهم- حيث يحتفلون بهذا اليوم بدل إقامة المأتم والعزاء.

جاء في كتابه: «هناك أمة تبكي شهادة شهيدها، لأنها ترى الشهادة هزيمة وغير مرغوب فيها وأنها مبعث أسف وحزن؛ وهناك أمة اخرى تحتفل بشهادة

---

(36) مطهري، نهضتهاى اسلامى صد سال اخير، [الحركات الإسلامية في القرن الاخير] ص80-81.
انظر: الطبعة العربية لكتاب: الحركات الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري، ترجمة: صادق العبادي، (بيروت: دارالهادي 1982) (طبعة جديدة ومنقحة، إيران، قم).

شهيدها، وترى فيها انتصاراً وإيجابية وسبباً للفخر والاعتزاز. إن الأمة التي تبكي شهيدها ألف عام وتأسف عليه وتتأوه وتتألم لذلك، هي أمة جبانة وضعيفة تنهزم في المواجهة. أما الأمة التي تحتفل لألفي عام بشهادة شهيدها فهي أمّة قوية ومضحية شئنا أم أبينا».

وعندما يكون انطباع أمّة عن الشهادة هو الهزيمة، وموقفها تجاه هذه الهزيمة هو البكاء والتأوه فإن نتيجة ذلك يكون الضعف والجبن والاستسلام. أما الأمة الأخرى التي تفسر الشهادة على أنها انتصار ويكون موقفها الاحتفال والفرح، فإن النتيجة تكون الروح القوية والمتعالية. كان هذا خلاصة الإشكال الذي أثاره ذلك الكاتب ويثيره آخرون أيضاً.

إنني أريد هنا أن أسلط الضوء على هذه المسألة وأثبت أن القضية على العكس تماماً مما أشاروا إليه، فالفرح بشهادة الشهيد نابع من الرؤية الفردية في المسيحية، بينما البكاء على الشهيد ناجم عن الرؤية العامّة لدى الإسلام.

ولست -بالطبع- في موقف تبرير ممارسات العامّة من الناس التي انتقدتُها شخصيّاً من قبل، حيث أشرت إلى أن بعض الناس ينظرون إلى الإمام الحسين عليه السلام من منظار المظلومية وأن مقتله يبعث على الأسى، وأنه لم يقم بأية خطوة بطولية وإيجابية.

وإنما أُريد هنا أن أُوضح الفلسفة الأساسية للوصايا الواردة من قادتنا حول البكاء على الشهيد. وبالطبع فإن الأشخاص الذين يحملون الثقافة الإسلامية إنما يشتركون في مراسم العزاء على الإمام الحسين عليه السلام إنطلاقاً من هذه الفلسفة.

ولا أعرف متى، وبواسطة مَنْ ابتُدعت مسألة الاحتفال بشهادة السيد المسيح عليه السلام والفرح بها؟. ولكننا نعرف أن الإسلام قد أوصى بالبكاء على الشهيد، أو على الأقل يُعتبر هذا الأمر من الأمور الثابتة في المذهب الشيعي.

... يعتبر الإسلام الشهادة انتصاراً في الجانب الفردي، أيّ لشخص

الشهيد، بل هو أكبر انتصار، وهو أمل، بل هو من أكبر الآمال.

قال الإمام الحسين عليه السلام: أخبرني جدّي بأن لي عند الله درجة لن أنالها إلا بالشهادة. إذن، فشهادة الإمام الحسين عليه السلام تعتبر بالنسبة له درجة سامية وأسمي درجات التكامل.

... إذن، فإذا كان موت الفرد عن طريق الشهادة، فإن ذلك يعني انتصاراً للشهيد بما يستحق الاحتفال والسرور. لذلك يقول السيد ابن طاووس أحد كبار المؤرخين: لولا التعاليم الصادرة إلينا حول إقامة العزاء، لكنتُ أحتفل فرحاً بشهادة الأئمة عليهم السلام.

من هذه الزاوية فإننا نعطي الحق للمسيحيين بأن يحتفلوا بشهادة السيد المسيح عليه السلام حسبما يعتقدون، والإسلام أيضاً يعتبر الشهادة بكل صراحة انتصاراً لشخص الشهيد وليس شيئاً آخر.

إلا أننا يجب أيضاً أن نقرأ الوجه الآخر من المسألة في النظرة الإسلامية، فالشهادة من الزاوية الاجتماعية، أيّ من حيث ارتباط الحدث بالمجتمع، هي ظاهرة تحدث في ظرف خاص وبعد وقوع حوادث معَيّنة كما أنها تستتبع أيضاً حوادث أخرى. فالتصرّف الذي يبديه المجتمع بالنسبة للشهادة لا يرتبط بشخص الشهيد فقط، أيّ ليس نابعاً من كون الشهادة انتصاراً للشهيد عينه أو هزيمة له، إنما ينبع تصرّف المجتمع من موقف أبناء المجتمع من الشهيد ومن الجبهة التي كان يقف فيها، وموقفهم من الجبهة المخالفة لشهيدهم.

إذن فعلاقة الشهيد بمجتمعه هي علاقتان: الأولى علاقته بتلك الفئة من الناس التي لو كان حيّاً وباقيّاً لاستفادت من وجوده، ولكنها حُرمت من نعمة وجوده، والأخرى هي علاقته بالفئة التي مهّدت للفساد والظلم فانتفض الشهيد لمحاربتها حتى استشهد.

ومن الواضح أن تكون الشهادة بالنسبة لأنصار الشهيد الذي حُرموا من نعمة وجوده مدعاة للتأثر والأسف، فالذي يُبدي الأسى على الشهيد إنما في الحقيقة يبكي ويتأوّه على وضعه هو.

أما من زاوية الظروف التي حدثت فيها شهادة الشهيد، فالشهادة أمر مطلوب وإيجابي بسبب وجود تيار سلبي وغير مرغوب فيه [يتطلب الكفاح والتغيير]، فهي من هذه الجهة تشبه العملية الجراحية الناجحة والمطلوبة، ولكن حينما يكون هناك سبب يستدعي العملية، كاستئصال الزائدة الدودية، أو معالجة القرحة في المعدة أو الأمعاء أو ما شاكل. وواضح حينما لا يكون هناك سبب مرضي يستدعي ذلك فلا ضرورة للعملية الجراحية بل تكون أمراً خاطئاً[37].

هل الحياة عقيدة وجهاد؟

هناك عبارة تُنسب إلى الإمام الحسين عليه السلام ولكنها غير صحيحة من حيث المضمون، ولم نعثر على أسانيد تؤكد صحة نسبتها إليه، لكنها راجت على الألسن منذ حوالى خمسين عاماً. وهي أن الحسين عليه السلام قال: «إن الحياة عقيدة وجهاد». إن هذه الفكرة تنسجم مع أفكار الغربيين حيث يرون بأنه لا بدّ أن يعتنق الإنسان عقيدةً مّا وأن يناضل في سبيلها، بينما القرآن الكريم يتحدث عن «الحق». فالحياة من وجهة النظر القرآنية تعني «التمسك بالحق» و«الجهاد في سبيل الحق» وليس العقيدة والجهاد في سبيل العقيدة... فالعقيدة يمكن أن تكون حقة كما يمكن أن تكون باطلة، إذ العقيدة تعني انعقاد شيء في الفكر. وهناك ألوف الأشياء تنعقد في فكر الإنسان. إنها مدرسة غير إسلامية تلك التي تقول إن على الإنسان أن يعتقد بعقيدة وأمنية وفكرةٍ مّا في نهاية المطاف، ويجب أن يجاهد في سبيل تلك العقيدة، مهما كانت هذه العقيدة. بينما كلام القرآن كلام دقيق، فالقرآن يتحدث دائماً عن «الحق» و«الجهاد في سبيل الحق» ولا يقول بالعقيدة والجهاد في سبيلها، يقول: عليك بإصلاح عقيدتك أولاً، فلربما كانت بداية جهادك هو الجهاد مع عقيدتك، فعليك العمل على اعتناق العقيدة الصحيحة والحقة، ثم عليك الجهاد في سبيل الحق بعد أن اكتشفته[38].

---

(37) مطهري. نهضة وانقلاب [قيام، وثورة المهدي]، ص109-120.

(38) مطهري. إنسان كامل، [الإنسان الكامل] ص130-131.

الشفاعة ورضى الله

يرجع اعتقاد المشركين بالشفاعة إلى مسألة (التفويض)، والتفويض يعني عندهم أن أمر الخلق خارج الآن عن قدرة الله بل هو بِيَدِ الأوثان. فالعالَم في رأيهم بالنسبة إلى الله هو تماماً كالساعة بالنسبة إلى صانعها. فهم كانوا يؤمنون بأرباب متفرقين، وبأوثان وبأرواح ترتبط بهذه الأوثان. كانت هذه العقائد في الأزمنة البعيدة جدّاً، أما الآن فلم يبق منها إلا القشور. من هذا المنطلق كان المشركون يقولون بأنه ليس لهم شأن بالله، بل علاقتهم الأساسية كانت بهؤلاء [الأوثان والأرواح]، تماماً كالفكرة الشائعة في الدوائر الحكومية - وهي صحيحة هنا- حيث يعتقد الناس بأن الأعمال إنما هي بيد صغار الموظفين، فإذا راجع أحد الأشخاص المدير العام لإنجاز معاملة رسمية فإنه سيحصل على موافقته أيضاً، ولكن لأن إنجاز العمل هو بيد الموظفين الصغار فإنهم ينجزون العمل كما يشاؤون. ورغم أن الأوامر يصدرها المدير العام إلا أن شكليات التنفيذ هي رهن إرادة الموظف، لذلك فهو يقوم بالعمل كما يرغب، ولذا فإن الناس يقولون: دع الرؤساء والمساعدين، فهم لا يقدرون على شيء، إذ أن مهمتهم إصدار التعليمات فقط، وعليك بصغار الموظفين، فقد يستطيع أحدهم، وهو موظف إعداد البيانات، إنجاز أعمال أكثر من الوزير نفسه.

هكذا كانت عقيدة المشركين بالنسبة إلى الله، إذ كانوا يرون أن الأوثان والوسائط هي الأساس، وبكلمة: إذا استطاع الإنسان أن يُرضي هؤلاء فهم يتكفلون بما وراء ذلك وباستطاعتهم أن يخدعوا كبارهم، ولكن لو لم يستطع الإنسان فعل شيء في هذا المجال فلا تُرجى له أيّة فائدة. من هنا اتجهت الأذهان نحو الأوثان بدل التوجه إلى الله. وقد قلنا مراراً إننا نخطئ لو اعتقدنا بمثل هذه الفكرة فيما يتعلق بشفاعة الشفعاء، فنقول بأن لله أمرٌ وقانون ومرضاة معَيّنة، وأن للإمام الحسين عليه السلام [مثلاً] أمر وقانون ومرضاة أُخرى، فلله منظومة معَيّنة، وللإمام الحسين عليه السلام منظومة أُخرى، ولمنظومة الله حسابات معَيّنة، ولمنظومة الحسين حسابات أُخرى، وتأخذ المسألة هناك [عند الله] شكلاً آخر؛ ثم نقول بعد ذلك: ولأننا لا نَصِل إلى

الله، والأمر عنده محال، نجعل الحسين عليه السلام الذي يرى الأمور بشكل أسهل وأبسط، شفيعاً عند الله. فالله يطلب من الإنسان: الصلاة والصيام وجهاد النفس والأخلاق الزاكية، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأعمالاً أخرى شاقة، بينما الإمام على العكس من ذلك فإن منظومته سهلة جدّاً، فمجالس العزاء وسكب الدموع، أو اللطم قليلاً، خلال العشرة الأولى من شهر محرم كفيلة بحسم كل القضايا. فعوض الدخول من باب الله -عزّ وجل- والذي هو باب صعب ومعقَّد، نختار الدخول من باب الحسين عليه السلام، الذي يتولى ترتيب الأمور هناك [أي في الآخرة]. إن هذا الاعتقاد خاطئ جدّاً.

... ولاشك أن الاعتقاد بشفاعة الحسين عليه السلام بهذه الصورة باطل حتماً، أيّ الاعتقاد بنوع الشفاعة التي كان يعتقد بها المشركون بالنسبة للأوثان. فكما لم تكن الأوثان مسؤولة هناك عن هذه العقيدة بل كانت المسؤولية تتجه بالكامل نحو عبدة الأوثان. فمن الطبيعي هنا أيضاً أن لا يكون الإمام الحسين عليه السلام مسؤولاً، بل المسؤولية كلها تتجه نحو من يؤمن بهذا النوع من الشفاعة.

أما لو كان أحدنا يعتقد فيما يرتبط بالشفاعة بأن الإمام الحسين عليه السلام [مثلاً] يستحيل أن يشفع لأحد دون إذن الله ورضاه، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ [طه: 109] فإن هذا الاعتقاد هو الصحيح، هكذا يرى الحسين نفسه في الآخرة. فالله هو الذي اختاره [للشفاعة]، تماماً كما اختار الله وبعث الأنبيّاء وبعثهم في الدنيا لهداية الناس وانقاذهم، فهل بُعث الأنبيّاء بإرادتهم؟ هل هم الذين طالبوا الله في الدنيا أن يبعثهم رسلاً لهداية البشر، أم أن الله -تعالى- هو الذي أرسلهم بإرادته، وأنهم كانوا وسائط بعثهم الله لهداية البشر؟.. كذلك الأمر تماماً بالنسبة للمغفرة في عالم الآخرة. فالله هو الذي يختار الشفعاء ويكلفهم بأن يطلبوا منه المغفرة لأفرادٍ من البشر حتى يغفر لهم، ولهذا الأمر حسابات خاصة حيث أن غفران الله لا تشمل الناس إلا عن طريق من اهتدوا بسببه وإلا عن طريق الكاملين الذين هم أبواب الله. وفي كل الأحوال فإن الله هو

الذي يختارهم للشفاعة، من هنا تقول الآية الكريمة: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 44].

إذن، فالشفاعة أساساً هي لله تعالى. وعبثاً يتصور الإنسان بأنه هو الذي يختار الشفيع إلى الله، بل الله هو الذي يختار الشفيع للشفاعة، فمن المستحيل أن يشفع الشفيع دون أن يختاره الله. فمن هو الشفيع الذي يجرؤ على الشفاعة بدون إذن الله؟. من هو الشفيع الذي يسمح لنفسه بأن ينبس بكلمة واحدة بغير رضى الله سبحانه؟

إذن، فالشفاعة المرفوضة هي تلك التي تعتبر الاستقلال للشفيع، كما أشرنا. وعلينا نحن أن نعرف كلا النوعين من الشفاعة: تلك المرفوضة وغير الموجودة حتى لا نلج بابها فنقع في المعصية، إضافة إلى أنه عمل لا طائل من ورائه. وتلك الشفاعة الموجودة واقعاً، لأنّ علينا أن نتعرف على كل شيء موجود كما هو. ونحن نقول إن كل أولياء الله كالرسول الكريم ﷺ والإمام عليّ عليه السلام والسيدة فاطمة الزهراء والإمام الحسين، وكل وليّ آخر، بل كل من هو أكمل من غيره، باستطاعته أن يكون شفيعاً لمن هو أقل مرتبة منه، ولكن علينا أنْ لا نتصور أن التوسل بالشفيع يعني التهرب من الله، فإذا كانت الشفاعة بمعنى الفرار من الله سبحانه وتعالى فإنها تعني الذهاب إلى جهنم. فإذا قلت بأنني لا أصلّي ولكن أقوم بعمل آخر بدلاً عنه للإمام الحسين عليه السلام لأنه ـ الحسين ـ يرضى بشيء بينما الله يرضى بشيء آخر، فإنك لم تعرف الله ولم تعرف الإمام الحسين. ذلك الذي قال في خطبه: «رِضا الله، رضانا أهل البيت». وأساساً فإن الإمام الحسين لا يكون إماماً لو كان رضاه غير رِضى الله تعالى. والنبيّ كذلك لا يكون نبيّاً إن كان يتصرف لحسابه الشخصي أو يريد شيئاً غير ما يريده الله، أو يرضى بشيء غير ما يرضاه الله.

إذن، فمن المستحيل أن لا يلتزم الإمام الحسين عليه السلام بما يرضاه الله من الطاعات والعبادات، أو أن لا يظهر أيّة حساسية تجاه ما لا يرضاه الله من المعاصي، والذنوب، كشرب الخمر، والكذب، والغيبة وما شاكل، وفي المقابل يكون حسّاساً تجاه الأمور المتعلقة به شخصيّاً وتجاه من يعمل شيئاً في إطار هذه الأمور الشخصية. من يعتقد بهذه الفكرة لم يعرف الله سبحانه

كما لم يعرف الإمام الحسين. والحسين هو أول من يطرد هذا النوع من الأشخاص من بابه... لأنه لم يفتح باباً للولوج غير باب الله -عزّ وجل- حتى نقول: نحن لا ندخل من باب الله بل من باب الإمام الحسين. كلّا، فإن الحسين لا يكون إماماً إذا فتح باباً غير باب الله.

إن الشفاعة الحتمية تشمل بعض أهل التوحيد، ولكننا لا نعرف كل شروطها، وليس من الواضح لنا: متى تتحقق هذه الشفاعة. ولكنها تشمل أهل التوحيد في بعض الحالات. والشفاعة هي الغفران الإلهي نفسه، فعندما يُنسب الأمر إلى الله تعالى يُطلق عليها «المغفرة» وعندما يُنسب إلى الوسائط والشفعاء الذين اختارهم الله لمغفرته تُسمي «الشفاعة».

والكلام الذي يُثار في عصرنا الحاضر هو عن طلب الشفاعة، وتمتد جذور هذا الكلام إلى خمسة قرون سالفة، أيّ منذ عهد ابن تيمية الحنبلي. حيث كان يعتقد بأن طلب الشفاعة من أيّ شفيع حتى من النبيّ ﷺ هو بشكل عامّ من الشرك في العبادة وغير جائز. وقد أكد على هذه الفكرة فيما بعد محمد بن عبدالوهاب، ثم تبلورت في مذهب مستقلّ هو المذهب الوهّابيّ المعروف. وبطلان هذه الفكرة واضح جدّاً، فالحكم في طلب الشفاعة يعود إلى نوعية تلك الشفاعة. فالقرآن الكريم نفسه يرفض نوعاً من الشفاعة ويثبت نوعاً آخر. يثبت الشفاعة بإذن الله. إذاً، فنحن لو طلبنا من الشفيع أن يشفع لنا بإذن الله فهذا ليس من الشرك إطلاقاً. والقرآن يصرِّح بهذا الأمر: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: 64] فماذا تعني كلمة «جاؤوك» وجملة «واستغفر لهم الرسول»؟. كان بإمكانه أن يقول: ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم فاستغفروا الله لوجدوا الله تواباً رحيماً. فلماذا التأكيد على المجيء عند الرسول، وعلى أن يستغفر لهم الرسول؟ هذا هو نوع من الاستشفاع. وهو استشفاع للمغفرة. ذلك لأن هذا الأمر ليس بغير إذن الله، فالله ﷻ أذِن أن يأتي الناس إلى الرسول، وأن يستغفر لهم الرسول، أيّ يطلب المغفرة لهم من الله، فهذا هو تطبيق للآية الكريمة التي تقول: ﴿...مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: 255] وبهذا التفسير فإن الله يكون

قد أذن لنا أيضاً [بالشفاعة]. فهل يجوز لنا [نحن المؤمنين] إذا التقينا أن يَسأل بعضنا بعضاً الدعاء من الآخر؟. فيقول أحدنا: ادع لي؟ فعندما يسأل أحدنا من الآخر أن يدعو له، فهذا يعني أننا جعلناه وسيطاً، ولكن كيف؟ جعلناه وسيطاً لكي يسأل الله لنا الخير كعبدٍ لله. وواضح إن هذا هو نوع من الاستشفاع، ولكنه ليس شركاً على الإطلاق[39].

انتظار الفرج أم الإباحية؟

إن انطباع فئة من الناس عن المهدوية وخروج الإمام المهدي الموعود هو أن حقيقتها هي مجرد حالة انفجارية، وهي تتحقق فقط عند انتشار الظلم والتفرقة والاضطهاد والفساد وإبطال الحق، وهي نوع من ترتيب الأمور بعد انتشار الفوضى. فعندما يصل الصلاح إلى نقطة الصفر، ولا يوجد للحق والحقيقة أيّ نصير، ويصبح الباطل هو المهيمن الوحيد في مختلف المجالات، ولا تحكم سلطة غير سلطة الباطل، ولا يوجد في العالم شخص صالح، عندها يحدث هذا الانفجار، وتظهر يد الغيب لإنقاذ الحقيقة، وليس أنصار الحقيقة. ذلك لأنه لا أنصار حينذاك للحقيقة. على هذا الأساس فإن أيّ عمل إصلاحي مُدان سلفاً، ذلك لأن كل إصلاح يعتبر نقطة ضوء، وما دام المجتمع توجد فيه نقطة ضوء فإن يد الغيب لا تظهر. وعلى العكس من ذلك فإن كل معصية وفساد وظلم وتفرقة وإبطال حق، هو أمر جائز لأنها تمهِّد للإصلاح العام والانفجار المنتظر «فالغاية تبرر الوسيلة» والأهداف تضفي الشرعية على الوسائل اللامشروعة. إذن، فأفضل العون لتسريع الظهور، وأفضل أشكال الانتظار هو نشر وإشاعة الفساد. وهكذا، يكون الذنب والمعصية إلتذاذاً وإشباعاً للأهواء من جهة، وعوناً على الثورة المقدسة النهائية من جهة اخرى.

وتنظر هذه الفئة بالطبع بنوع من الحقد والعداء للمصلحين والمجاهدين والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، ذلك لأنهم يعدّون هؤلاء من

(39) مطهري. آشنايى باقرآن [التعرف على القرآن] ج2، ص92-98.

العقبات التي تؤخر ظهور الإمام المهدي الموعود (عجّل الله تعالى فرجه). وعلى العكس، إن لم يكونوا هم من أهل المعاصي، فهم ينظرون بعين الرضى للعصاة وعناصر الفساد، ذلك لان هؤلاء يمهدون السبيل لظهور المنقذ.

إن هذا الانطباع يجب أن نعتبره نوعاً من «الديالكتيكية» من حيث أنه يعارض الإصلاح، ويعتبر الفساد أمراً مطلوباً ومبرراً لأنه مقدمة للانفجار المقدس، بفارق هو أن الفكر الديالكتيكي إنما يعارض الإصلاحات ويسمح بتشديد مظاهر الفساد لكي تتسع الفاصلة بين الطبقات ويشتد النضال، بينما هذا التفكير الجاهل يفقد هذه الميزة، فهو يفتي بالفساد فقط حتى يؤدي تلقائياً إلى النتيجة المطلوبة.

إن هذا التفسير والتحليل لظهور المهدي الموعود وثورته، وهذا النوع من انتظار الفرج الذي يؤدي إلى حالة من تعطيل الحدود والتعاليم الإسلامية، والذي ينبغي أن يُعدّ نوعاً من «الإباحية» لا يتفق بأي شكل من الأشكال مع الضوابط الإسلامية والقرآنية[40].

(40) مطهري. قيام وانقلاب مهدى [نهضة وثورة المهدي]، ص62-64.